

لاهوت ما بعد الحداثة

قراءة في كتاب: كمبردج عن لاهوت ما بعد

الحداثة

المؤلف: كيفين ج. فانهورز

الناشر: مطبوعات جامعة كمبردج ٢٠٠٢

الصفحات: ١٢١٢ صفحة قطع وسط

يعدُّ هذا الكتاب «كتاب كمبردج عن لاهوت ما بعد الحداثة»، عملاً موسوعياً متميزاً نظراً لأنه يعرض على امتداد ١٣١٢ صفحة المراحل التاريخية لولادة اللاهوت الاجتماعي والسياسي والثقافي في الغرب الأوروبي. وهو ما جعله يحتل مرتبة مرجعية يُعاد إليها لتوثيق التطورات اللاهوتية، التي شهدتها الكنيسة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. شارك في تأليف هذا الكتاب الموسوعي عدد من الخبراء والمختصين في تاريخ وفلسفة اللاهوت الديني المسيحي. أما الذي أشرف على إنجازهِ ووضع مقدمته فهو البروفسور كيفين ج. فانهورز. إنه يتحدث من البداية بما يشبه التقرير المنطقي ليقول: بما أن كل شيء ليتطور في الغرب ويتجدد فمن البديهي أن تشمل هذه القاعدة علم اللاهوت، الذي يتطور ويتجدد هو الآخر أيضاً. وبذلك فإن فانهورز والذين معه من مؤلفين الكتاب / الموسوعة، أرادوا أن يؤسسوا للنظرية القائلة، بأن المسيحية في الغرب هي ظاهرة تاريخية وبالتالي فهي

خاضعة للتطور التاريخي، وفاعلة فيه في الوقت نفسه. انتظمت هذه الموسوعة في أقسامها وفصولها وفقاً للتحقيقات الزمنية لتطور حركة اللاهوت. وهكذا نجد أن مؤلفي الكتاب قد وضعوا تطور علم اللاهوت ضمن أربع مراحل هي:

١- علم اللاهوت القروسطي: هو الذي شاع، وساد، وتطور، في القرون الوسطى الممتدة في الغرب، من القرن الخامس الميلادي إلى القرن الخامس عشر وحتى بدايات السادس عشر.

٢- لاهوت الاصطلاح الديني: ظهرت معالمه، وإرهاصاته الأولى، مع دخول أوروبا عصر النهضة. هذا اللاهوت كان مهّداً له عدد من كبار المصلحين بدءاً من جون كالفن، إلى مارتن لوثر، ثم ظهرت الحركة الإنسانية على يد إيراسم وسواه. بعد ذلك طرأ تجديد على العلوم الدينية لدى المسيحيين، لتدخل أوروبا في فضاء لاهوت جديد. وهذا اللاهوت هو ما يسمى بلاهوت لإصلاح الديني، حيث حصل آنذاك انقسام كبير لتظهر بنتيجته مذهبٌ جديدٌ هو المذهب البروتستانتي الذي سيدخل في نزاع لاهوتي مديد مع الكنيسة الكاثوليكية وبابا روما. وبحسب مؤلفي الموسوعة اللاهوتية هذه، أن تداعيات ظهور «لاهوت الإصلاح الديني» لم تنته عند مفاعيلها الأولى. أي ضمن اللاهوت

الكنيسة والمؤمنين حصراً. بل إنها تركت آثار جمة ومهمة، على اتجاهات العقل الأوروبي والذهنيات الثقافية التي تشكلت بفعل ذلك. وهي اتجاهات لا يمكن فهم حقائقها، أو سبر أغوارها من دون أن يؤخذ أثر الإصلاح الديني البروتستانتي بنظر الاعتبار. ولقد كان من التمثلات الأساسية لهذا الأثر، نشوء ما يمكن اعتباره «جغرافيا دينية» راحت تشكل تبعاً للولاءات الدينية الجديدة داخل المسيحية. فبلدان الشمال الأوروبي ستصبح في أغلبها مؤمنة بالمذهب البروتستانتي. حيث انفصلت عن الكنيسة الأم في روما. وأباح مذهبها لرجال الدين بالزواج على عكس ما هو عليه الحال لدى الكاثوليكية التي ترى إلى «الرهبنة» والتزهد في هذا الجانب شرطاً أساسياً للانتماء الكنسي لدى الأوكليوس. إلى ذلك كان مطلب الإصلاح البروتستانتي في تجديد فهم العقيدة هو الوجه الأبرز على المستوى اللاهوتي. إذ أن ذلك التجديد يقتضي - بحسب مؤسسي هذا اللاهوت - وجوب القراءة الحرة والاختيار الذاتي، للتوراة والأنجيل. وهو الأمر الذي ترتب عليه رفض عصمة البابا، وطائفة آخرين التقاليد الدينية التي اعتبرها المذهب البروتستانتي مقيّدة للإيمان المسيحي. وعلى الإجمال فقد ضمت الجغرافيا الدينية البروتستانتية ألمانيا، وإنجلترا، وهولندا،

والسويد، والدنمارك، والنرويج، أما «الجغرافيا الكاثوليكية» فقد ضمت دول جنوب أوروبا، نذكر منها بشكل أساسي: فرنسا، إيطاليا، أسبانيا والبرتغال.

٣- لاهوت التنوير: لقد تطورت الأمور بعدئذ في خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. فهنا أخذت تتشكل الحداثة العلمية على يد غاليليو والفلسفة عبر ديكارت، وسبينوزا، وسواهما، من فلاسفة التنوير. وكان من المنطقي، بسبب الثورة العلمية، أن يفتح السبيل على ظهور لاهوت جديد هو ما يمكن أن ندعوه بـ «لاهوت التنوير» هذا اللاهوت هو - كما تقرّر الموسوعة - لاهوت يتميز بأنه أكثر عقلانية من سابقه. ومعنى ذلك أن الفهم العقلاني للدين المسيحي راح يقوى وينتشر في صفوف الفلاسفة والمثقفين أولاً، ثم في صفوف الطبقات العليا المتعلمة من الشعب ثانياً. مع صعود ما سمي «لاهوت التنوير» لم يعد الإيمان المسيحي مربوطاً بالخرافات والعجائب. وذلك نظراً لسيادة التفكير العقلي، والعلمي، والفلسفي. في حين ظل معظم الطبقات الشعبية وفيه لسيرتها الأولى، أي لتعاليم السلف من القساوسة والكهنة، ولم يحصل التنوير في هذه الأوساط إلا ببطء شديد وفي صورة تدريجية.

٤- اللاهوت الليبرالي: ظهر هذا التطور

في القرن التاسع عشر والعشرين، غير أن المعركة كانت قد حُسمت لمصلحة العلماء والفلاسفة. فقد انقسم رجال الأوكليروس في أوروبا إلى اتجاهين:

١- اتجاه ارتضى التعاطي مع الحداثة بشكل إيجابي، والتكيف معها، عبر إعادة تأويل العقيدة الكاثوليكية، على نحو يوائم شروط الزمن الأوروبي الجديد.

٢- واتجاه حرص على طابعه المحافظ. فرفض التعاطي مع عملية التحديث باعتبارها عملية مضرّة بالإيمان. ومصدراً لإلحاق الأذى بسلطة الكنيسة.

سوف نجد أن نهاية المعركة قد رجحت الاتجاه الأول. كما يبتني كتاب «لاهوت ما بعد الحداثة». ومع ذلك فإن زمناً آخر من النزاع بين اللاهوت وتطورات الحداثة قد بدأ مع نهاية القرن العشرين. وهو نزاع سيكون متمحوراً حول طائفة من القضايا، يتعلق معظمها بنظام القيم، وتداعياته الدراماتيكية، في الغرب خصوصاً، والعالم بوجه عام.

في حركة اللاهوت المسيحي الغربي ابتداءً من القرن التاسع عشر، وصولاً إلى القرن العشرين المنقضي. مع «اللاهوت الليبرالي» سوف نجد أن الفهم الحديث للعقيدة المسيحية، قد انتصر كلياً على الفهم القديم الموروث من القرون الوسطى. فالطبقات الشعبية عموماً، كانت دخلت في طور جديد من الاستنارة الثقافية والاجتماعية، بفضل التطور العلمي، والصناعي، وانتشار التعليم المجاني. أما ما يتعلق بالنطاق الجغرافي لـ«اللاهوت الليبرالي» فيتحدد - بحسب مؤلفي الموسوعة - ضمن مساحة البلدان البروتستانتية التي سبق ذكرها، وذلك قبل أن ينتقل إلى البلدان ذات الانتماء الكاثوليكي. وسبب ذلك يعود إلى أن هذه البلدان (أي البلدان الكاثوليكية) ظلت تعارض أكثر من غيرها، حركة الحداثة، نظراً للموقف السلبي الذي أخذه البابوات في تلك الحقبة. ويشير واضعو الموسوعة، إلى أن الصراع بين الكهنة والفلسفة استمر